بقایا روح

رشا شمس

obeikan.com

الكاتبة في سطور

❐ كاتبة وقاصة، صدرت لها مجموعة قصصية كاملة بعنوان (**قلوب واجفة**)، كانت الأكثر مبيعًا ضمن إصدارات دار الشهد للنشر والتوزيع في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٧م.

❐ شاركت في المجموعة القصصية (رؤى حالمة) الصادرة عن دار بنت الزيات للنشر والتوزيع.

❐ حصلت على درع الإبداع والتميز لعام ٢٠١٥ م عن قصتها (المرايا) في مسابقة اللجنة الثقافية بنادي الشمس الرياضي.

❐ حاصلة على بكالوريوس في علم الميكروبيولوجي من جامعة عين شمس بتقدير عام جيد جدًا.

❐ حاصلة على دبلومة في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها من جامعة كامبريدج ١٩٩٧م، تتلمذ على يديها عشرات الأجانب العاشقين للغة العربية وفنونها، وآدابها.

❐ حاصلة على دبلومة في الأدب المقارن، وعلوم الدراما من جامعة كامبريدج ٢٠٠٠م.

❐ شاركت في ترجمة روائع من الأدب العربي إلى لغات أخرى.

❐ نُشر لها عدد من المقالات عن الإسلام، نشأته وانتشاره، آدابه وعلومه في عدد من الصحف الأجنبية.

❐ عضو مؤسس في مُبادرة نساء مُبدعات لدعم وتقديم المواهب الأدبية، والأقلام النسائية.

❐ المُنسق الإعلامي والمسؤول العام للمجموعة القصصية (وعد الروح).

المحرر الأدبي بدار الشهد للنشر والتوزيع.

الحساب الخاص بها على موقع التواصل الاجتماعي(فيس بوك)

https: //www. facebook. com/rshams1

بـقـايـا روح

(أما آن للمشتاق أن يهنـأ بنظرة وعناق!)

سبعة وعشرون عامًا كاملةً كنت فيها شابًا شاردًا ضالًا مُهلهلًا، لا هدف له ولا غاية، لا يربُطني بالحياة رابط، ولا يشغلني بها شاغل، عشت حياتي عابثًا ضائعًا لا أحمل للدنيا همًّا ولا أُقدر العواقب، يتيم الأب بلا أدنى شعور لافتقاده، أو الشوق له لأني أبدًا لم أعرفه، فقد رحل عن دنيانا حين كنت جنينًا لا يزال يرتع في رحم أمه " رحمة الدمنهوري"، بائعة الخضروات، الصبوحة ذات الثلاثين عامًا، والتي اصطحبتها أمها في تحفظ وترقب للشيخ " بركات " فقد تأخر زواجها وتعسر، ومر على ترملها عشر سنوات دون أن يطرق بابها عريسًا منذ وفاة زوجها الأول، تخاف أمها أن تتركها وحيدة إذا ما وافتها المنية بلا أخ، ولا زوج، ولا سند فـ حضرتا إلى القاهرة وزارتا " أم العواجز" الطاهرة الشريفة، وطافت بها على أولياء الله الصالحين تعقد النذور، وتشعل الشموع.

نصحها البعض بزيارة الشيخ " بركات الملاح" أملًا في قدراته العجيبة في فك الأسحار والأعمال، أُعجب بها الشيخ منذ أن دلفت إلى حضرته، واشتعلت في جوفه ومضة إعجاب بالعروس البضّة المليحة، طمأن أمها التي امتلأت نفسها إيمانًا بقدراته، وزادت قناعاتها ببركته بعدما سمعت الكثير عن أساطيره من هؤلاء النسوة اللاتي تزدحم بهِن قاعته، وتتهلل أساريرهِن إذا باركهُن الشيخ، ومسح على رؤوسهن بكفه المبارك، طيَّب الشيخ بركات خاطرها، وأقسم لها أن زواج " رحمة" كان أمرًا مُحال، فقد عُقد لها عمل سُفلي بالوحدة، وعدم الزواج

ربطته لها ضُرتها السابقة، لكن براعة الشيخ وطلاسمه التي رسمها على كتفها بعد صلاة الجمعة، ورُقيته المستمرة لها، وحجابه الذي ربطه على صدرها سَـ يطرد الأرواح الشريرة وسيفك العمل السفلي، وسيتم زواج " رحمة " على يديه إن شاء الله قبل نهاية الشهر وقد كان.

فقد أُغرم بها الشيخ، وزوَّجها لنفسه لكن زواجهما لم يستمر سوى عامين فقط ثم قطعه رحيل " بركات" عن دُنيا أمي "رحمة " بلا سابق مرض سوى ليلة واحدة قضاها مُرتعدًا، محمومًا، مُحتجزًا في مستشفى الحميات بالعباسية وحين شق الصباح سكون الليل أعلن الطبيب وفاة "بركات" وعادت "رحمة" تتلحف بالسواد، وقد تسرب إليها خوف مُبهم من أن تكون نحسًا على كل رجل تعرفه بل إنه صار يقينًا تحمله داخل نفسها الفزعة، ترملت من جديد، وما كان حصادها من زواجها بذاك الدجال الذي آمنت بجهله ثم شهدت عجزه وزيف أسطورته غير صبي أتمَّ عامه الأول قبل وفاة أبيه بشهر واحد وجنين مثلي جاء الدنيا ليحمل نحسًا وتشاؤمًا تخشاه أمه، وفقرًا وحاجة تهرب منها، لذلك سارعت وبدون تفكير إلى الزواج من أول رجل طرق بابها.

الزوج الثالث المُنتظر لِتنفي عن نفسها تُهمة الشؤم التي وُصِمَت بها، وتمسح عن ملامحها عار الترمل الذي أصاب شبابها في مقتل تاركة إياي " إبراهيم بركات" الشهير ب " هيما الجن" طفلًا رضيعًا يُبلل ملابسه ليل نهار، فلا يجد غير جدته العجوز تُبدلها له، رحلت جدتي المسكينة إلى السموات العلى حين أكمل شقيقي إسماعيل عامه العاشر، وبلغت أنا التاسعة ولم أكن قد رأيت أمي خلال سنوات عمري تلك سوى بضع مرات قليلة حين تأتي لزيارتنا في رمضان، أو الأعياد.

و كم كنت أتمنى أن أتمرغ في حضنها أستشعر دفء فؤادها، وأستنشق عبيرها فتتفتح خلاياي على حب الدنيا التي كرهتها مُبكرًا، لكن أمي سامحها الله كانت قد استقرت مع زوجها الثالث الأسطى "مرعي" في مدينته التي تبعد عنا قدر سفر ليلة كاملة في المواصلات المُرهقة، تزوجها "مرعي" لتُربي له ابنتيه التوأم من زيجَته السابقة، ورفض مرعي إقامتي وأخي معهم في المنيا فلديه بنات ولا يجوز أن يُخالطهما صبيان يتيمان في نفس ذات الدار، فلن يضع الكبريت جنب الجَاز، ولا حاجة له في ذلك وأوضح في حزم قطع أي أمل لأمي في إقناعه قائلًا: - "تستطيع الحاجة الكبيرة تربية إسماعيل، وإبراهيم أما بناتي فليس لهما من يرعاهما سواي، وأنا أجهل أمور البنات لهذا أسعى إلى تركهما في رعاية امرأة حنونة مثلك يا "رحمة"..

هكذا اشترط "مرعي" على "رحمة" وهكذا قبلت، ومرت السنون متعاقبة تلتهم بقايا طفولتنا، وتُسارع بنا نحو جموح الشباب وعنفوانه.

يأس شقيقي "إسماعيل" من الحصول على عمل مناسب وسط ازدحام القاهرة واكتظاظها بساكنيها، فارتحل مع صديق له إلى رأس غارب للعمل في إحدى شركات البترول كعامل بعقد مؤقت؛ على أمل أن يتم تثبيته فيما بعد، أما أنا فقد تهربت بلا أي سبب يُذكر من آداء الخدمة العسكرية، وكان من الممكن أن تمضي حياتي كلها على نفس الوتيرة، سالكًا نفس الطريق، لولا أن التقيت بتلك البسمة التي أنارت حياتي، وقوَّمت سلوكي وهذبت مجُوني، اسمها "بسمة" وقد كانت لي البسمة الصافية التي لم تعرفها شفتاي قبل أن ألقاها.

تصغرني بخمس سنوات كاملة، قوامها صغير كفراشة تطير هنا وهناك بخفة مُتناهية، عيناها سوداوان كالليل البهيم، شعرها ناعم أسود ينسدل في رشاقة؛

ووداعة ليُغطي نصف ظهرها، ذات غُرة كثيفة تُبروز جمال عينيها في فتنة، أنفها دقيق، وفمها شهي كحبة التوت، بشرتها خمرية جميلة مُشربة بحمرة تزيدها جمالًا، وسحرًا، وغموضًا، عرفتها عن طريق الصدفة البحتة، ويالها من صدفة تُرُج الوجدان، التقيتها في منزل "سعيد فرحات" صديقي وأقرب الناس إليَّ في هذه الحياة.

كانت تزور شقيقته "هاجر"، فبسمة صديقتها المقربة، كم كانت رائعة رغم بساطتها، مُبهجة رغم تواضعها!! خطفت عيني وقلبي من النظرة الأولى، أحببتها بصدق دون أن أعرف معنى الحب أو أُدرك ماهيته، أخلصت لها ووهبتها روحي، وعلى عتبة قلبها تقاصرت جميع معالِمي دون إرادتي، منذ أن رأيتها وجدتني أقطع كل علاقاتي بتلك الفتيات اللاتي كنت أواعدهُن سرًا، أو علنًا وأعدهُن بالزواج، حرمتَ على نفسي ملامسة "تحية" التهمة الكبرى في حياتي، جارتي المُطلقة اللعوب التي تكبُرني بعشر سنوات على الأقل، عرفتها في غفلة من ضميري، كانت امرأة جامحة تسكن فوهة بركان، يستفيد كلانا من تلك العلاقة المحرمة ولا مجال للضمير ليلعب لعبته.

تستجيب لي تحية تحت وطأة احتياجها للإحساس بأنوثتها المُهدرة المختبئة تحت عباءتها السمراء التي تُقيد بحسرة معالم جسدها الثائر، وتهرع إلى أحضاني كلما اشتاقت لِرجل يُذكرها بتاء التأنيث التي تخلعها عنها خارج جدران منزلها، فأروي ظمأها وأُدلل أنوثتها فتتبدل غيوم سمائها، وتستحيل أمطارًا، فترتوي وتُزهر وتشق ضحكاتها سكون الليل في فجور.

أما أنا فكنت أُنفس فيها عن رغباتي بلا خوف، ولا ترقب للعواقب، فلم تُطالبني مرة بالزواج، وكنت أعرف أنها لن تفعل أبدًا، ليس حُبًا في الرذيلة لكن

خوفًا من أن تفقد حضانة صغيرها جراء هذا الأمر، فطليقها ينتظر زواجها على أحر من الجمر؛ ليُنازعها وليدهما الصغير، فيكسر أنفها، وينال منها، ويُبتِر أمومتها.

تُغدق عليَّ " توحة" بالأموال، ولا تكترث بعِظم ما تُنفق، يتشدق أهل الحي بسيرتنا، وعلاقتنا دون أن يجرؤ أحد على مواجهتنا صراحة بما يعتمل في نفسه، ف "تحية السُبكي "صاحبة أكبر قهوة في الحي، ومُعظم سكان المنطقة إن لم يكن جميعهم زبائنها، ورواد مقهاها الأكبر، والأشهر في المنيرة، أكثر من نصفهم مدينون لها، والنصف الآخر إما يسكن في أحد عمائرها، أو يعمل هو أو أحد أقربائه في محل من محلاتها المنتشرة على جانبي الرصيف بطول شارعنا.

أذهبُ إلى قهوتها وقتما أشاء دون أي تكاليف، وبدون أدنى عناء يذهب أحد صبيانها ليُحضر لي أفخر أنواع الطعام والشراب والسجائر أيضًا من مصروف شبه دائم قابل للتمدد، والزيادة تتركه المعلمة "توحة " تحت التصرف من أجل عيون " هيما الجن "، ولا يستطيع أحد الاعتراض على الأمر أو مناقشته علنًا، أو التلميح إليه، ف " توحة" و"هيما" وجهان لعملة واحدة ولا تعليق على ذلك..

أما بسمتي فكان لي معها شأن آخر، صارحتها بحبي لها واستعدادي للموت من أجلها، أخبرتها بحالي وقصة حياتي وأني يتيم، نشأت بلا أب يرعاني، وتزوجت أمي بآخر تحت وطأة الفقر، والعوز، والخوف من قادم الأيام، فلم يراع زوجها الله في ذاك اليتيم، حرمني حضن أمي، وحرمني الموت حضن جدتي، ورمى بي إلى الشارع يَلطشْني وألطشه، أرى أمي كلما سنحت الظروف، أو أُتيحت الفرصة، إلى أن التقيت سعيدًا، صديق العمر، ففتح لي باب بيته، وقبله باب قلبه، ضمتني أسرته بحنان بالغ، عملت معه في مجال الديكور، وأصبحت لي خبرة طيبة به وحققت نجاحًا لا بأس به

صارحتني بسمتي بأنها أيضًا تُكن لي نفس المشاعر منذ أن رأتني، لكنها من أسرة فقيرة متواضعة الحال، هرسها الزمان تحت عجلات قطارِه بلا هوادة، والدها كاتب في أحد المحاكم الابتدائية، لها شقيقتان يكبُرانها بسنوات قليلة، التهم تزويجهما كل مدخرات الأسرة علاوة على الديون التي تراكمت كنتيجة طبيعية لتلك الزيجتان، ومازالت والدتها تسدد بقية أقساط تزويج " هدى وأسماء" بخياطة الملابس، وتطريز العبايات الحريمي لبعض سكان الحي الذين لا طاقة لهم بأسعار الملابس الجاهزة.

لها شقيق واحد "خالد " حضرة الضابط، يكبرها بسبع سنوات، الثمرة التي أفنى والدها "عم أمين" حياته من أجلها، كم كانت سعادته بالغة حين التحق خالد بكلية الشرطة التي تمناها طوال سنوات طفولته، صارحتها بحالي وحالتي ولم أُخفْ عنها شيئًا، حتى حكايتي مع "تحية"، اعترفت لها بذنبي وأعلنت أمامها توبتي، فتقبلتني رغم عيوبي، وانفلات حالي، وطالبتني بتقويم إعوجاجي، وإصلاح ما بيني وبين ربي أولًا، وما بيني وبين نفسي ثانيًا.

احتقرت ما مضى من عمري وما سلف، وقررت أن أستقيم وأعود إلى الطريق الصحيح من أجلها، وإكرامًا لها على اختياري حبيبًا، وقبل أن تضيع مني حياتي، فقد كان حبي لها هو دافعي الأول والأخير للتوقف عن حياة التشرد والضياع، فكرنا معًا ماذا نفعل لتشق أحلامنا طريقها إلى أرض الواقع؟ نُريد أن نبني عشًا سعيدًا على شجرة مُثمرة، واستقر رأيي ورأيها على أن يكون حبنا في النور وتحت أشعة الشمس، فلا مكان للظلام بيننا، وقررنا أن أتقدم لخطبتها أولًا، ثم أُسلم نفسي للجهات المختصة لأنال جزائي العادل ثم أُنهي فترة عقوبتي،

وأخرج لأتزوجها بلا شوائب، ولا مُنغصات، فنهنأ بزواجنا دون أن أظل مُهددًا خاشيًا لحظة القبض عليَّ، والتي قد تُجهز على أحلامنا، وتقتل سعادتنا في مهدها.

تقدمت لأسرتها، ورافقني سعيد وأبوه عم الحاج "فرحات"، وافق عم "أمين" على حالي، وقد أخبرته بصراحة كل ظروفي، وتعهدت له أني سأجعل "بسمة" أسعد زوجة على وجه الأرض وأني أستحق فرصة حقيقية لأبدأ بها حياتي من جديد، وبسمة هي فرصتي، أقسم عم فرحات على أني صادق في كل كلمة قلتها، وضمنني لدى الرجل، وتعهدت بتنفيذ كل ما سنتفق عليه، ووضعت يدي على المصحف الشريف، وأقسمت ثلاثًا على كل ما قلت، وعلى صدق كل ما انتويت، وتعرف الرجل بإحساسه كأب على صدق نواياي، وأني أرغب حقًا في الاستقامة طالبًا لها، إلا أن حضرة الضابط خالد كان له شأنٍ آخر، فقد عارض الأمر كُليًا، ورفض زواجنا، واستعظم منحي فرصة حياة كريمة، طبيعية، شريفة، فكيف لشقيقة ضابط ينتظره مستقبل باهر أن تتزوج بمن هو مثلي؟!

(لو أن الشرف يُقاس بصدق النوايا لكنتَ أنت أشرف رجال الأرض).

هذا ما قالته بسمة لي وهي تُغالب دموعًا كحبات اللؤلؤ تنفرط من عينيها الحزينتين حين التقينا في بيت سعيد، وأمام عم فرحات طالبتني أن أتزوجها الآن على أن يشهد كلٌ منهما على قسيمة الزواج، فهي بالغ رشيد تستطيع أن تُزوج نفسها بنفسها، أشاد سعيد برأيها وامتدحه، فهو لا يشعر بالارتياح لنَوايا "خالد"، والقلق يتسرب لدواخله فيما قد يُقدم عليه حضرة الضابط ليمنع زواجنا، نظر اليَّ عم فرحات مُستفهمًا مُنتظرًا ردي علي العرض، طأطأت رأسي معتذرًا، أمسكت كف بسمة بين راحتيَّ وأردفت في هدوء: لقد دخلت البيت من بابه، صافحت

أبيكِ رجُلًا لرجل، ولن أسرقكِ منهم وأسرق فرحتهم بكِ، ثم نظرتُ إلى عينيها مباشرةً وأكملت:

ولكني أيضًا لن أتركِ ما حييت، فمثلكِ أموت دونه، فأنتِ في ثنايا القلب باقية، أكبر عم فرحات ما كان مني، وأثنى على موقِفي، فأبناء الأصول لا يسرقون زوجاتهم، وتعهد أن يُنهي هو الأمر مع والد بسمة، شهد الرجل لي بالأصل والفطنة، وحُسن التصرف ولامني سعيد كثيرًا، وأنَّبني على قراري وحذرني من عواقبه، فلِمَا لم أخطف بسمتي من بين هؤلاء جميعًا وأُحررها ونفسي من قيود لا أستطيع فكها، وأزمات أنا في غنى عنها، وليغضب من يغضب، وليثور من يثور، فهو لم يعرفني جبانًا أو مُتخاذلًا يومًا فلمَ أحجمتُ عن الإقدام الآن؟!

كان عليك أن تتزوجها اليوم وليس غدًا يا أغبى خلق الله، لن يُقدِّر أحد حبكما ولن يمنحك أحد فرصة عمرك، كان عليك أن تسرق بسمتك من الدنيا قبل أن تُكشر لك عن أنيابها السامة.

بعد أيام قليلة التقيت عم أمين والد بسمة، وأكبر الرجل موقفي، وقراري، وشكرني كثيرًا بدموع عينيه، فقد أخبره صديقه فرحات بكل شيء، رحب الرجل بي كثيرًا، وعاهدني أمام عم فرحات، وصديقي العزيز سعيد أن بسمة ستكون لي، وسيتدبر هو أمر خالد ابنه، لكن عليَّ أولًا أن اجْتاز محنة السجن، فلا يمكن أن أتزوج ابنته، وأكون مُهددًا ومُطاردًا، وعاهدني أنه سيقف معي ضد ابنه إلى النهاية.

وبالفعل سلمتُ نفسي، حُكم عليَّ بعامين في معسكر العمل بسجن أبو زعبل، تقبلت الأمر الواقع بشجاعة، وصبر رغم مرارته وقسوته، بل عشت

أيامي الأولى في السجن راضيًا عن نفسي لأول مرة في حياتي، مؤمنًا أنني عدت إلى الطريق الصحيح، وأن الحياة ألم وسعادة، وأننا لا نستشعر طعمًا للسعادة إلا بعد تذوق الألم، ولا نعرف للحلو مذاقًا إلا حين يسقبه المُر، وإن فترة سجني هي صك غفران أحتاجه بشدة ليكون عنوانًا لعُمري القادم وهي أقل ما يمكنني أن أكفر به عن رعُونتي السابقة، وأخطائي العظيمة في حق نفسي قبل كل شيء، مرت الخمسة وأربعون يومًا الأولى ثقيلة وبطيئة رغم تمسكي بالصلاة وتلحُفي بالصبر، لا شيء يشغل بالي إلا انتظار يوم الزيارة حيث لا يُسمح للوارد الجديد بالزيارة إلا بعد هذه المدة.

انقضت المدة ولم يحضر أحد لزيارتي، لم تحضر بسمة أو سعيد أو حتى عم أمين ولا عم فرحات!!

انتظرت موعد توزيع البريد وقلبي يخفق برعونة، فإذا به ينتهي دون رسالة لي من حبيبتي، أو من صديقي العزيز، أين أسرة خطيبتي التي عاهدتني على الوقوف بجانبي، تكرر الأمر عدة مرات، بت أسرح بنظري في الخلاء المحيط بالسجن والدموع تترقرق في عيني ولا تسقط، لعلها بسقوطها تريحني، وتزيل ذلك الشيء الثقيل الجاثم فوق صدري ويكاد يكتم انفاسي! أنتظر موعد الزيارة الشهري بلهفة تتخللها مرارة، فيجئ الزوار، والتفتُ وحدي يمينا ويسارًا أبحث عن طيف بسمة أو طيف صديقي الوحيد، فلا أجد سوى السراب، فيضيق صدري وأكاد أموت.

لست نادمًا على اختياري للطريق السليم من أجلها وإكرامًا لها ومن أجل نفسي، بل إن أشد ندمي هو على شرودي وضياعي في الماضي، هل انقطاع

الصلات مؤشر على احتمال تغير مشاعرها، أو موقفها بعد صدور الحكم؟ وإذا كان الأمر كذلك، هل عميت بسمة عن تقدير حُبي لها، هل خانها قلبي الذي يسكن بين أضلعها؟ هل عجزت عن انتظار رجل عشِقها ودخل السجن بقدميه تكفيرًا لذنوبه، ولكي يكون جديرًا بها، خالصًا لها بعد حين زوجًا عاشقًا ولهانًا؟؟!! أردت أن أكون لها رجلًا شريفًا مسؤولًا اختارها عن حب واقتناع وتضحية، فهل هذا جزائي الذي استحقه؟؟

مرت تسعة أشهر من التفكير الذي يسحق خلايا الدماغ والمعاناة التي تقطع أوتار القلب، أهلكني ودمرني افتراض الأمور الكثيرة التي تكون قد منعت فتاتي عني!؟؟ ومنعت صديق العمر عن زيارتي؟!

ليأتي موعد الزيارة ولأول مرة اسمع اسمي بوضوح " إبراهيم بركات الملاح " ضمن كشف المصرح لهم بها، لم أصدق في بادئ الأمر، استفهمت من العسكري المسؤول عن اسمي، هل أنا المقصود فعلًا؟ فأكد الرجل الأمر، وصلتُ إلى مقر الزيارة يحمل رأسي آلاف الأسئلة، منْ الزائر أو منْ الزائرين؟؟ ولما الآن بعد كل ما مضى من شهور؟ رأيته هناك كسيرًا، عليلًا، غدا كهلًا، إنه "عم فرحات"، يغلق كفه بحرص وتوتر على شيء ما؟؟ احتضنني بقوة وتساقطت دموعه ملتهبة على يدي كاد جلدي يتشقق معها..

فَائلا: كم اشتقتُ لكَ بُني، لكن عذرًا لم أستطع زيارتك قبل الآن، فقد كنتُ طريح الفراش منذ وفاة سعيد و..... فرغتُ فاهي مستوقفًا ومتسائلًا: - وفاة سعيد، متى؟ وكيف؟: - بعد الحكم عليك بأسبوع واحد تقدم أحدهم لحضرة الضابط خالد طالبًا الزواج من بسمة، رفض أمين بشدة وأخبر ابنه بما اتفقتم عليه

وقد كان شديد الحرص على أن يحفظ وعده معك، أخبره مرارًا أن بسمة مخطوبة، ثار خالد صائحًا في وجه أبيه، أصر على عدم زواج شقيقته من رد سجون مثلك متعللًا أن هذا سيقضي على مستقبله، وإن العريس لا يشوبه شائبة، فهو ضابط شرطة برتبة نقيب، ميسور الحال، لن يكلفهم في هذا الزواج جُنيهًا واحدًا، وهم لا حاجة لهم بمزيد من الأقساط، ولا الأزمات، أي عاقل يرفض هذا الزواج ويعطي ابنته بيديه لسجين مثلك!؟

لم يستطع أمين أن يقاوم كثيرًا، لم يستطع أن يقف في وجه ثورة وحيده، وسنده الذي هدده مرارًا بالرحيل عن بيت الأسرة مُخاطبًا إياه بنبرة قاسية تفوح منها رائحة العقوق، معلنًا دون خجل التبرؤ من أبيه وقطع رحمه، بل أكثر من ذلك فهو لن يدفع مليمًا واحدًا في البيت، لن يسدد أقساط ولا جمعيات، لن يُساهم في مصاريف علاج والدته التي أُصيبت بفشل في الكلى وتحتاج للغسيل مرتين أسبوعيًا، لن يشتري له بعد الآن أمبولات الأنسولين ولا دواء الجلطة ولتزوره الأزمة في أي وقت لعلها تُريحه من هم والده العجوز الخرفان الذي يرفض تزويج ابنته من ضابط شرطة، ويسلمها لقمة سائغة لرد سجون، أرعن، تربية شوارع.

وافق "أمين" على زواج "بسمة" من ذلك النقيب بعدما كسره ولده وفلذة كبده، وافق مرغمًا والحسرة تنهش فؤاده والعجز ينخر عظامه! لكن بسمة لم توافق ولم تستسلم، وهربت ليلًا قاصدة منزلنا، أخبرتنا بكل ما كان، أبى سعيد أن يترك أمانتك كريشة مرتعشة في مهب الريح، رحل بها في نفس الليلة إلى الفيوم حيث أحد معارفنا هناك، وتركها وديعة في الحفظ والصون.

أراد أن يزورك ويخبرك بما كان ولكن لم تكن الخمسة وأربعين يوما قد مضت بعد، في الصباح أُلقي القبض عليه وتناوب خالد وزميله العريس ضربه لعله يعترف بمكان "بسمة"، لكنه ابدًا لم يتكلم، زادهم صمته وصموده وحشية وجبروت، وتناوبوا تعذيبه وانتهاك آدميته حتى فاضت روحه إلى بارئها محافظًا على أمانتك، مراعيًا وديعتك، حافظًا عهدك، ووعدك ما استطاع، مخلصًا لصداقتك.

بعد حوالي شهرين استطاع خالد الوصول إلى شقيقته، وأخبرها أنه سيفعل بي ما فعله بولدي وهددها بأنه سيُوصي عليك في محبسك من يُحيل حياتك إلى جحيم، سيُذيقك الأمرين حتى تكره اليوم الذي ولدت فيه وتلعن حالك بدل المرة ألف مرة، أو تتحلى بالشجاعة، وتقرر أن ترحم نفسك من عذاب لا طاقة لك به فتنتحر! سلمت بسمة نفسها لغيرك من أجلك، من أجل الحفاظ عليك، باعت حياتها، واشترت حياتك، وأرسلت لك هذه الدبلة (فتح كفه وأفرج عن ما كان بها)، تسألكَ فقط أن لا تُسيء الظن بها، وتعتذر لك لأنها كانت أضعف من أن تقاوم صدمات الحياة، وضرباتها التي توالت على قلبها، فأفقدته نبضاته، تحبك، وتكره ضعفها، وقلة حيلتها، تموت في اليوم مائة مرة من أجلك، تبكي سعيدًا كما لو كانت شقيقته، تبكي حبك كما لو كانت معبودتك.

وضع عم فرحات في كفي ورقة صغيرة يفوح منها أريج حبيبتي، هبت على قلبي المشتاق نسائم عطرها فارتعشت أوصالي وبكيت، فضضت قصصاتها الورقية وارتطمت عيناي بحروف خطتها يد حبيبة القلب، حروف خُيل إليَّ أني أرى في خيالاتها وجه بسمة تنطق بشفتيها النابضتين بأنوثة شفافة العبارة المدونة (ما أثقل الوعود حين نقطعها ولا تُنصفنا الحياة للوفاء بها، سامحني إن استطعت)

بـسـمـــة (الهالكة دونك).

تركني عم فرحات راحلًا ورحلت معه سعادتي إلى غير رجعة وانقطع كل أمل لي في الحياة، وغدوتُ أعُد الأيام المتبقية لي في السجن وأنا أنظر إلى حوائط الزنزانة وكأنني أحفظها وانقشها في ذاكرتي، بِتُ أعرفها جيدًا وعن ظهر قلب، فلن أغيب طويلًا، سأخرج لأنتقم ممن سلبوني روحي دون رحمة، نزعوا قلبي من بين ضلوعي دون شفقة، أقضي ليلي أضم إلى صدري كل ذكرى جمعتني بصديق عمري، أتعطش إلى كل لحظة جمعتني بحب بسمة فتنهمر من عيني دموع صامتة، وأتأوه بأنين مكتوم أدمنته مُتحسرًا نادمًا على سعادة لم أعشها ولم أختبرها مُقسمًا أني سأعود إلى السجن مرة أخرى بإرادتي أيضًا، سأبر بقسمي وسأعود، حتمًا سأعود، ولكني سأعود منتصرًا حاصدًا لكل روح ظلمتنا، نهرتنا، وأغرقتنا في يمَّ التعاسة واللوعة والحرمان الى الأبد.

سعيد وبسمة وأنـا آهـات وتأوهـات لن تصمت إلا بحصاد أرواح ظالميها.

تمت بحمد الله

Openkan.com